

الهوية المغربية وتحدي العولمة... بين النفي والتأكيد

د. يوسف قاسمي

– جامعة قسنطينة

Résumé

Cet article scientifique, est une tentative de rechercher et de lire le problème majeur de l'objet; Identité porté sur: le Maghreb et le défi de la mondialisation ? .. Subdivisé en regardant problématique les questions suivantes: identifier les éléments de l'identité du Maghreb et la cause de la crise dévasté? Quel impact négatif sur l'identité arabe de l'université et le Standard ? Nature de la relation entre l'identité et du Maghreb - arabe et la marée de la mondialisation ? La mesure dans laquelle cette identité peut résister les spécificités des droits historiques et culturelles dans un monde en mutation ?

المقدمة:

إن الذات العربية عامة و المغربية خاصة - بكل مكوناتها الحضارية، الثقافية، التاريخية، والجغرافية الموحدة - تواجه أزمة حادة وعميقة لإثبات الأصالة الاجتماعية والتاريخية؛ تلك التي تكسبها التجانس والانسجام المطلوبين، و تؤكد العمق الثقافي المشترك فيها... في عالم اليوم. حيث وبعد التخلص من الدورة الاستعمارية التقليدية الطويلة والعنيفة؛ التي عملت على سلب وعينا التاريخي بذاتنا، وتمزيق أواصر التواصل الجماعي بين أمتنا بالأمس، بغية إسقاط انتمائنا الوطني والقومي معناه ووظيفته، كما تشتتت الجهد المشترك لشعوبنا في المقاومة والتنمية. وحتى لا يبقى من عنوان نجتمع عليه غير: ذاكرة مقطوعة، ودورات للقطيعة والعنف المتجدد؛ حيث تغذي سلبيته واستمرار يته دوائر الاستعمار الجديد في تجلياته المتجددة وفي إطار عنوانه الأبرز اليوم؛ ممثلا في: **العولمة** بأبعادها المختلفة: اقتصادية، ثقافية، إعلامية، وتكنولوجية.... وغيرها.

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
---------------------------------------	---

للأسف فإن جل النخب المغربية والعربية معا - وخاصة الرسمية منها - لم تحسن إدارة الاستقلالات الوطنية، وربطها بأطرها القومية والحضارية الجامعة بجدية وموضوعية كافية. هذا ما جعل أركان بنية الهوية العربية تتعرض للارتباك وحالات من التآكل والتراجع في حياة الشعوب، حتى أوشكت على السقوط والانهييار. وكان لذلك المشهد الدراماتيكي أن مثل انعكاسا واضحا لواقع الإخفاق والانتكاسة الذي أصاب مشاريع الوحدة السياسية العربية و المغربية على مدى أكثر من نصف قرن ولا تزال.

في هذا المناخ المسموم وغير الصحي... تسللت شعارات التحديث الغربية إلى بينتنا العربية، في محاولة استعمارية جديدة - مسنودة محليا من بعض العناصر والقوى المتغربة - لفرض هوية جديدة مخالفة لروح الأمة وشخصيتها؛ قوامها تحريك عناصر التجزئة العرقية، واختلاف اللسان، وتضخيم الثقافة الفلكلورية الشعبية المحلية... الخ. في مخطط مبرمج هدفه قطع أواصر القربى والتكامل بين قيم الوحدة في أمتنا؛ لربط المجتمع العربي برمته بمنظومة المجتمع والثقافة الأوروبية. ناهيك عن إقناع الأجيال الجديدة بمزايا الارتباط بها، وإظهار ثقافة الانفتاح - غير المنضبط - على الغرب؛ بكونها جوهر التقدم ومقومه الأول: لغته، فكرا، وسلوكيات...

إشكالية البحث:

ضمن هذا السياق تأتي هذه الورقة العلمية، في محاولة لبحث وقراءة إشكالية رئيسية للموضوع؛ تتمحور حول: **الهوية المغربية وتحدي العولمة.. بين النفي والإثبات** ؟ لتتفرع عنها إشكاليات فرعية تبحث التساؤلات التالية: تحديد عناصر الهوية المغربية وأسباب الأزمة التي حاقت بها ؟ ما تأثيراتها السلبية على الهوية العربية الجامعة والموحدة؟ طبيعة العلاقة بين الهوية المغربية -العربية وتيار العولمة الجارف ؟ إلى مدى يمكن لهذه الهوية الصمود بذاتيتها وخصوصياتها التاريخية والثقافية في ظل عالم متغير ومتسارع ؟

مناهج الدراسة:

تعتمد الدراسة منهجي التحليل والاستقراء في المعالجة، وتتوخى الإسهام الفكري- المنهجي، كما تهدف إلى إثراء النقاش والحوار حول هذه العناصر؛ بغية إعادة اللحمة التي تجمعها، وإحداث الفاعلية المطلوبة في مقومات الهوية المغربية، باعتبارها جزء لا يتجزأ من الهوية العربية الإسلامية التاريخية والثقافية، ومصيرها الواحد المشترك... ولتمكينها من أن تؤدي دورها الإيجابي بنجاح، في كنف فضاء مفتوح على حرية الرأي والرأي المعارض البناء؛ كطريق لإنضاج الوعي ورسم معالم المستقبل... تأكيداً للذات القومية والحضارية، وانفتاح على التجديد ومواكبته بإصرار والتزام مسؤولين.

كما سيكون للمنهج النقدي دوره في تأطير هذا العمل في بعض محطاته، لإحداث المقاربة المطلوبة و الاجتهاد في طرح رؤية بديلة لجدلية: الهوية العربية والعولمة، وصولاً إلى اقتراحات متواضعة لقواعد منهجية وفكرية تراها ملائمة للتعاطي مع طوفان العولمة الجارف. بما يضمن ويكفل هوية الأمة وسلامتها، ويوفر لها كذلك أسباب انتشالها من واقع الانكفاء على الذات؛ في محيط شديد التسارع ليس فيه لمنطق النعمة مكان ؟

مدخل عام:

إن الأفكار والمعتقدات جزء أساسي ومكون هام لشخصية الإنسان، غير أنه من المؤكد أن هذه الأخيرة ومفاهيم أخرى، إلى جانب طرائق للتفكير مشابهة... لم تخلق معنا مثل الأعضاء البيولوجية المكونة لأجسامنا؛ بل هي وليدة ونتاج واقع محيط بنا بملابساته ومعطياته الكثيرة والمعقدة، إلى جانب كون بعضها من مصدر الوحي المنزل الذي جاء به أشخاص مصطفون من قبل العناية الإلهية المنزهة. أما الجزء المتغير والمتجدد فيها عبر الزمن، فهو من بنات صناعتنا نحن كبشر في أزمنة متباعدة، ووفق شروط موضوعية فرضتها حاجتنا المتنوعة مادياً ومعنوياً. وعليه فإنه من الضروري والمنطقي أن تخضع هذه العناصر المزيجية كلها أو بعضها، لعمليات النقد والغربلة والتقويم؛ التي قد تضطرنا معها الظروف إلى التخلي عن جزء منها، أو إعادة الصياغة للجزء الأخر وتطعيمه بمغذبات جديدة يفرضها واقع التبدل والتطور الإنساني: زماناً، مكاناً، وحاجيات... الخ. لأجل ضمان تحقق

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

الشروط الطبيعية البناءة لمسيرة تطورنا نحو الأفضل. بحسب خيارنا وتقديرنا نحن البشر ليس إلا ! فليس لأية حقيقة أو فكرة تواجهنا أهمية تنكسر، إلا بمقدار أهمية موقفنا منها، وتصرفنا حيالها إيجابا أو سلبا. فهذا العالم الأمريكي وليام جيمس يقول: " إن تغيير المواقف الداخلية لعقولنا يمكننا من تغيير حياتنا...،... إن أعظم اكتشاف لجيلي هو أن الناس يستطيعون تبديل حياتهم بتبديل مواقف عقولهم."1

تبدو هذه المسألة حقيقة بسيطة لكنها لدى الكثيرين صعبة ومعقدة إن لم تكن مؤلمة؛ لأنها مسألة ترتبط بقوانين خفية في النفس والعقل الباطن الذي يوجه شعورنا واتجاهاتنا الحياتية، فينعكس عنه مستوى الثقة بقدرتنا على تغيير أحوالنا، أو العكس عند حالات العجز والإحباط التي تكبل إرادتنا. من أجل هذا جاء التوجيه الإلهي مؤكدا الربط بين قضية التغيير وواقع النفس واستعداداتها. قال تعالى: " إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم." الأعراف - الآية ... وقد أشار إلى المعنى نفسه المفكر الجزائري مالك بن نبي - رحمه الله - حينما شخص مشكلتنا مع التغيير بالقول: " إن مشكلتنا ليس فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار ومن تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم: الجمال والأخلاق، وما فيها من نقائص تعتري كل شعب نائم."1 مكرر

من جهة أخرى فإن إطار التفكير والتصدي للمشكلات المطروحة أمامنا، وبحث الحلول المناسبة الناجعة لها؛ يقتضي لتلك العملية تكييفا ومواءمة مع طبيعة هذه المشكلات، وتحديد المنظار الذي ننظر من خلاله حتى يتوافق مع طبيعة " الحدث - المشكلة". بذلك فقط نعزز استجابتنا بما يعبر عن الموقف الذي نشكله منها؛ أي بمعنى تأطير المشكلة ووضعها في سياق جديد يتناسب مع وقائعها وحقائقها الموضوعية، وإنتاج الحلول الكفيلة بمعالجتها بحسب ما تقتضيه الحاجة ويستدعيه الهدف المحدد من تلك العملية. إن قضايا الهوية، الثقافة، العولمة، وعناوين أخرى من المسائل والمشكلات القديمة الجديدة التي تطرح نفسها على حياتنا باستمرار، وتلزمنا بتناولها ومراجعتها بما يتناسب ومجموع المبادئ والثوابت، والخصوصيات التي تشكل معالم شخصية كل مجتمع وأمة، لتؤشر إلى التمايز أو التطابق فيما بينها.

والخصوصية الاجتماعية والثقافية تمثل ركنا الهوية في مجتمعنا المغربي؛ بما يمثلانه من ثقل ورصيد انثر بولوجي وتاريخي... سجل ولا يزال يسجل حضوره الفاعل في أية مقارنة موضوعية لإشكالية الهوية في أبعادها المذكورة. ضمن هذا المنظور تبرز إشكالية الهوية المغربية في أبعادها الفكرية، الثقافية، والسياسية... أمام تحد كبير يواجهها في ظل عولمة "الثقافة"، "التاريخ"، "السلوك وأنماط الحياة"، و "الإنسان" نفسه!.. مما يجعلها تركز في زاوية التهديد والخطر الذي يحيق بها تاريخيا وحضاريا وإنسانيا؛ وما ينجم عن ذلك من تداعيات سلبية تتهدد البنية الكلية للمجتمع وتماسكه. وكذلك بنية المؤسسة الرسمية المغربية؛ ممثلة بشكل خاص في الدولة القطرية، وتراجع الانتماء الوطني وانكماشه؛ ليفقد معناه ووظيفته السياسية القومية لدى مجموع الفعاليات الوطنية وعموم الشعب!؟

إن مثل هذا المأزق في إشكالية الهوية قد يجبر المجتمع المغربي برمته - إن لم نتدارك الأمر بسرعة - إلى حالات من فقدان الثقة بالذات والأخر، وتنامي بواعث التفكك، ودورات العنف والعنف المضاد، وسلوكيات الرفض والعدوان... الخ. تلك التي تقضي إلى تفشي الجريمة المنظمة؛ المسنودة من قبل قوى وأطراف خارجية تحركها المصالح والامتيازات الامبريالية، باسم العولمة وتيارها الجارف تارة، وتحت عناوين أخرى لمسميات واحدة؛ تتخفى من ورائها بهدف بسط النفوذ الاقتصادي، والهيمنة الثقافية ومحو الخصوصيات الاجتماعية والحضارية للغير. لنجد بذلك أنفسنا أمام احد خيارين: إما الاستقالة الجماعية من الحياة، وبالتالي القبول بموقع التابع الخانع، أو الاستجابة والذوبان الهالك.. وأحلى الخيارين مر!! تبدو لنا كل مظاهر الخيبة والسقوط التي حاقت بمنطقتنا المغربية وأمتنا العربية اقتصاديا وسياسيا، وتغشى السلوكيات والممارسات السلبية والشاذة في واقع مجتمعنا اليوم، ناهيك عن تداعي الأعداء علينا من كل صوب... الخ؛ ما هي - في حقيقة الأمر - إلا تعبيراً ومؤشراً عن حجم الأزمة الفكرية ومأزق الهوية الذي نحياه، ورسالة بليغة عن منطق الرفض الجماهيري للواقع الراهن، وعدم قبوله التكيف مع أدواته الفكرية والمنهجية الاستهلاكية. فضلا عن منظومة القيم الجديدة التي يراد فرضها لشطب المسار التاريخي الزاخر للأمة، ومحو قيمها الاجتماعية

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

المتأصلة التي تعاقب الناس على العيش والتعايش معها في وئام وسلام ورفي...
1- البنية التاريخية - السوسيو ثقافية للهوية المغاربية:

إن الفاعلية الحضارية المبدعة لأي مجتمع لا يمكن أن تتمثل شروطها الكاملة إلا إذا استندت إلى مكونات الحضن الطبيعي للمجتمع، وتمثلت أساسيات وعناصر شخصيته التاريخية والحضارية، وتم تفعيل دور العوامل الثقافية المحفزة في سبيل بذل المزيد من الجهد البناء لأجل ضمانة الوحدة والتماسك الاجتماعي المطلوبين. كل ذلك لن يتأتى إلا في ظل فضاء مفتوح، يعترف بالتنوع والتميز إلى حد التعارض؛ كمسلك وحيد للتعبير عن الوجود والقناعات، وطريقا لوعي الذات، وتحديد خطوط الحركة ومعالم السير باتجاه صياغة منظومة حياتية فاعلة، تستوعب كامل المكونات والإطراف الفعالة في معادلة البناء الاجتماعي، لتطوير أدائها في كنف الأصالة والتجدد دون تنازع أو تناقض !

والتصدي لانجاز مهمة بهذا الحجم ومن هذا النوع، في فضاء مغاربي متنوع عرقا ولسانا؛ يشكل بذاته حالة من الصعوبة والسهولة في أن واحد؟.. صعوبة تتجسد في كيفية الجمع بين العناصر المختلفة إلى حد التناقض أحيانا، والقدرة على تحويلها إلى عنصر تغذية مشترك ومصدر لهدف واحد، هو وحدة المجتمع والمصير... و سهولة لأن في التنوع و الاختلاف خصوبة و ثراء، و تجديد للدم الذي يضح في جسم الكيان ليساعده على استئناف دورة الحياة بنشاط و فعالية ناجعة. هذا كله في سياق الاستفادة من خلاصة العناصر الايجابية في العملية، المحفزة على تجاوز العوامل السلبية التي تهدد كيان الجميع بالمصير المحتوم تفككا و تحللا. بذلك فقط يعدو التنوع المذكور إجماعي لا عدائي؛ بشرط أن نتمكن من تحييد بل إبطال مفعول تدخل العامل الخارجي في المسألة كعنصر مرجح؛ ذلك المتمثل خصوصا بـ: "العامل الاستعماري" ؛ بكامل تجلياته التاريخية بالأمس، وكذا صورته الجديدة التي تعبر عنها "العولمة الرأسمالية" المتغولة.

فالهوية المغاربية في تعريفها العام البسيط: هي جزء من كل؛ أي أنها فرع من الهوية العربية الإسلامية الشاملة، التي لا تحتل في المنطق الشعبي العام التجزئة أو التناقض. وهي تمثل آلية تماسك ودفاع ضد أخطار الغزو للثقافات والهويات الشمولية الوافدة؛ على غرار المذاهب الإلحادية الشيوعية أو الرأسمالية

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

المادية وعولمتها المتوحشة. وقد شكلت بحق في مرحلة النضال التحرري ضد الاستعمار خط الدفاع الأول؛ بمضامينها الدينية والقومية، كما ظلت محل إجماع الكل حتى في صورتها التقليدية الأكثر إمعانا في المغالاة والتشبيث بقيم الماضي وأمجاده التاريخية الأكثر ارتباطا والتصاقا بالدين. كونه المحرك والمغذي الأساسي لعنصر المقاومة والدفاع عن قيم: الشرف، وحرية الأشخاص والأوطان... وغيرها.

ضمن هذا المعنى نجد حتى النخب العلمانية الأكثر تنويرا وانفتاحا على قيم الغرب وسلوكياته، لا تقوى على التتكر لهذه الهوية أو السباحة ضد التيار العام بهذا الخصوص، بل تتمسك - ولو تكتيكيا - بعناصرها؛ كأداة ووسيلة ناجعة في مواقفها حيال المشروع الاستعماري ومنظومته الفكرية والسلوكية. فهذا فرحات عباس أحد أبرز وجوه النضال الجزائري، وواحد من الأقطاب العلمانية في رؤيته السياسية، وصاحب المرونة الكبرى في التعاطي مع إدارة الاحتلال الفرنسي - وهو خريج المدرسة الاستعمارية و معاهدها - نجده يرفض ويأبي بقوة و إصرار التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية مقابل حصول الجزائريين على حقوقهم في المساواة والمواطنة الفرنسية. هذا بالرغم من أنه أحد أكثر وأشهر من كشف عن تعلقه بفرنسا؛ مسجلا ذلك على صفحات الإعلام من خلال مقالته الشهيرة: "فرنسا هي أنا" الذي نشره سنة 1936م . نفس الموقف نسحله لدى الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة؛ العلماني المذهب، المفتون بالثقافة ومظاهر الحياة الأوروبية؛ حيث نجده يتمسك بحجاب المرأة كمقوم من مقومات الشخصية الوطنية التونسية على عهد الاحتلال... لكنه يتراجع عن هذا الموقف لاحقا في مرحلة الاستقلال، ليمنع ارتدائه وتداوله داخل المجتمع التونسي !؟

بهذا يصبح سؤال الهوية محل التشكيك والمواربة، بل موضع الاتهام لدى البعض! خاصة من قبل الفئة المتغربة من اليمين واليسار؛ ذلك أن الأيديولوجيات الوطنية التي حكمت دويلات الاستقلال بالمنطقة المغاربية كانت قد تبنيت في مشاريعها الفكرية والسياسية مضامين غير تلك التي حملتها وقت تصديها للاستعمار... و بالتالي فقد غيرت المخزون العربي الإسلامي كمصدر وعنصر جامع، لتحل محله المرجعية الغربية كمضمون جديد، يجسد طموحات قطرية ضيقة، كما يعكس آفاق التبعية الفكرية، الاجتماعية، والسياسية... لهذه الدول

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

باتجاه التعلق بأيدولوجية الغرب بشقيه اليميني واليساري. متخذة من التاريخ العرقي " البربري " تارة، " العشائرية"، و " الفئوية" تارة أخرى، ومن بطولات الزعامات الوطنية في القديم والحديث، ناهيك عن أدبيات النضال السياسي المحلي، وقيم الحدائة، و شعارات المواطنة والتنمية... وغيرها؛ مزيجاً لهوية فكرية بديلة تفتقر إلى الانسجام و التناغم. وملاذا لانتماءات وطنية قطرية متعصبة، قطعت صلتها بعمقها الحضاري التليد، الذي اشترك الجميع وكانوا أصحاب الحظ والشرف في صناعته.

غير أن هذا التوجه و إن بدا في مرحلته الأولى يحمل من النجاحات المحدودة اقتصاديا و سياسيا، إلا أنه سرعان ما تكشفت عورته، و أفضى إلى إخفاقات سواء على مستوى الصمود السياسي في وجه موجات وعواصف التوحد الأوروبي و العالمي، أو في جانب الإخفاقات الاجتماعية، التربوية و الفكرية... الخ. وقد أشر لهذا بوضوح ضرورة العودة إلى ثوابت الهوية العربية الإسلامية الجامعة. خصوصا في ظل حدوث انتفاضات داخلية انفصالية، و نزوع خارجي واضح باتجاه المركزية الثقافية، وفرض عولمة في الأيدولوجية و الخيارات، بل أمركة العالم قسراً! ... عبر أطروحات وبدائل تستهدف القضاء على الهوية العربية الإسلامية الأم. و طرح الهويات الشرق أوسطية، والمتوسطية... كبدائل جاهزة. بينما في أماكن بعينها درجت على العزف على وتر طائفيات وعشائريات يتم تحريكها لخدمة حاجات سياسية ظرفية داخلية، ومسلكية عالمية للهيمنة على منطقتنا العربية كلها . فما حقيقة هذا الصراع، وما الهوية المطلوب تثبيتها في الفضاء المغربي ؟.. وكيف السبيل إلى توطينها إلى جانب الهوية الأم العربية الإسلامية ؟

2 - مكونات الهوية المغربية:

تقوم الهوية المغربية على ثلاثة عوامل ترتكز عليها اجتماعيا و تاريخيا في عملية البناء الاجتماعي، وتشكيل الشخصية القومية و الوطنية. هذه العوامل تتجسد في :

- التراث الثقافي الشفهي؛ المعروف "بالتراث البربري" أو الأمازيغي؛ بأطرافه وأشكال تعبيره اللساني خاصة، وهو محفوظ في صورة عادات وتقاليد و أعراف متوارثة في التنظيم الاجتماعي القبلي، طقوس الزواج، والأفراح والأتراح، ومظاهر اللباس وبقاقي أنماط الحياة الأخرى. و يستوعب

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
---------------------------------------	---

مجموعات قبلية وعرقية عديدة ومتنوعة في المنطقة المغاربية؛ كسكان البربر في الأطلس والريف المغربي، وفي شمال الجزائر بجزيرة والأوراس بالشرق، والتوارق في الصحراء، وكذا باقي المجموعات البربرية بجبال الخمير والغرب التونسي، وما يماثلها في منطقة زوارة بغرب ليبيا... وغيرها. حيث تتحدر جميعها من أصول مشترك موغلة في القدم؛ يعتقد في كونها أول من سكن منطقة شمال إفريقيا. وبالتالي فهذا التراث الثقافي المتنوع والثري يمثل مقوم أساسي من مقومات الهوية المغاربية، على الأقل في عهدها التاريخي والاجتماعي.

- أما المكونان الآخران فيتمثلان بالتحديد في: **العروبة** كلغة وثقافة، **والإسلام** كعقيدة ونظام سلوكي حياتي... وهما ركنان راسخان في الوعي الجماعي المغربي؛ تتأسس عليهما الهوية المغاربية وتتقاطع من خلالهما. بل وتتواصل بايجابية وفعالية مع باقي عناصر الهوية العربية الإسلامية الجامعة، باعتبارها مكونات ثابتة تاريخيا واجتماعيا في الشخصية المغاربية على مدار الزمن وتوالي العصور. فالمغرب العربي يحظى بميزة أساسية عن المشرق العربي؟.. تلك المتمثلة في غياب التنوع الديني والمذهبي، حيث الأغلبية المطلقة من السكان يدينون بالإسلام ومذهبهم الفقهي مالكي، مع وجود نسبة محدودة من أتباع المذهب الإباضي. وقد مكّنه ذلك من توفير الحصانة اللازمة من الصراعات والفتن الطائفية والمذهبية وغيرها. لكن في المقابل تبرز التعددية العرقية ممثلة في: عنصر البربر بمجموعاته اللسانية والجغرافية، والجنس العربي. إلا أننا نجد العلاقة بين الطرفين يحكمها الانسجام والتجانس والتعاون، بل لا نبالغ إذا قلنا أن الكثير من البربر لا يتداولون لسانهم الأصلي في كثير من الأحيان، ويتحدثون العربية كلغة كما يعتبرون أنفسهم عرب مسلمين وكفى! دون إنكار أو تنكر للهجاتهم المحلية التي لا تستعمل في التواصل إلا عند الحاجة والضرورة الملحة. ولعل "مجموعة الشاوية" بمنطقة الأوراس بالشرق الجزائري خير شاهد على قولنا هذا. وقد لعبت العقيدة والأخوة الإسلاميتين دورهما في صناعة هذا التلاحم والتعايش المشترك 4 ، و الذي قد لا نجده متوفرا في أقطار عربية أخرى بين مجموعاتها العرقية.

على صخرة هذه الوحدة والأخوة المتينة تحطمت وأخفقت كل المحاولات الكولونيالية ومشاريعها؛ الهادفة إلى توظيف الخصوصية العرقية البربرية في

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

المغرب العربي، في خدمة سياسته الشهيرة " فرق تسد". ونفس المصير حاق بالمحاولات اللاحقة؛ الخارجية المسنودة محليا، الرامية إلى إثارة المشكلة تحت عناوين ومسميات مختلفة: كحقوق الأقليات، وحق التنوع الثقافي... وغيرها. وهي في مجملها تبتغي تغذية عناصر التجزئة في المجتمع، لأجل اختراق بنية هويته وتفكيكها؛ وفتح الثغرات في جدارها المتماسك، لتتسلل منه هويات وافدة أو مستوردة؛ فرانكفونية تغريبية، تتبعها مشاريع للهيمنة الأمريكية بمسميات ومن خلال فضاءات مكشوفة: كالمتوسطية، والشرق أوسطية، والعولمة الثقافية والتكنولوجية، والوحدة الإنسانية... وغيرها.

من جهة أخرى فإن الدولة الوطنية الحديثة التي نشأت عقب طي الحقبة الاستعمارية في المغرب العربي، تميز تعاطيها مع التراث الثقافي البربري من جهة، ومقومات الهوية المغاربية التاريخية و الحضارية: كاللغة العربية، والدين الإسلامي... الخ؛ بنوع من التنافر والتكسر الذي بلغ في بعض الأقطار مستوى من الحدة و التناقض إلى درجة التوتر الاجتماعي و السياسي، خاصة على صعيد تثبيت الهوية. ذلك أن هذه الكيانات القطرية في حقيقتها تماهت إلى حد بعيد في استيراد أنماط أيديولوجية، واجتماعية تناغمت مع شعارات الحداثة والتطوير، ومشاريع التنمية المرتبط بالنمط الاجتماعي والسياسي الأوروبي خاصة. هذا في الوقت الذي تنكرت فيه للهوية الأصلية و الأصيلة لمجتمعاتها! وليس غريبا أن تظهر هذه الكيانات السياسية الحديثة كما وكأنها مقطوعة وغير موصولة بالمرة بواقعها الاجتماعي والثقافي، وبعناصر هويتها الموروثة تاريخيا. مما أدى إلى التنكر لها روحا وولاءا من قبل القطاع الأغلب من جماهير الشعب، وكذلك من مجموع الفعاليات الدينية والثقافية والسياسية المعارضة. افقدها ذلك جانبا مهما من شرعيتها الواقعية والسياسية، فضلا عن مشروعيتها التاريخية، وزخمها الوطني. حيث أضحت تحيا في عزلة عن بيئتها الاجتماعية، في الوقت الذي عززت فيه أواصر التبعية وأثارها... مع قوى الاستعمار والامبريالية العالمية. تلك التبعية التي أصبحت معها الدول المستقلة بالمنطقة المغاربية: " لا تتخذ شكل السلطة السياسية العامة التي ترتفع فوق الحكام والمحكومين بقدر بما تتخذ شكل الحكام، وبالتالي تنقلص الدولة فعليا في أجهزة قهرية مباشرة."5

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

في ظل هذا المناخ العاق، وفي سياق التطورات الحاصلة بعد الاستقلال، وفي خضم المعركة الجديدة التي فتحت جبهاتها على مستويات عدة؛ طفا على السطح صراع فكري وثقافي، تجلّى اجتماعيا وسياسيا في إثارة موضوع الهوية و اشكالياتها.... حيث برزت تيارات نظرت إلى القضية من زوايا مختلفة، توزعت بين الداعين للأصالة التاريخية، وضرورة تفعيل دور العناصر التقليدية للهوية؛ ممثلة في العروبة و الإسلام خاصة، كونهما شكلا بالأمس في سياق مقاومة الاستعمار تحديدا، الحصن المنيع في مواجهة مخططات الفرنسية والتغريب، كما أبطل مفعول الاندماج والتذويب لمكونات الهوية المغاربية العربية الإسلامية لصالح الثقافة الغازية القادمة من الضفة الشمالية للبحر المتوسط، ومن وراء البحار.6

بينما نظر البعض الآخر إلى المسألة نظرة مختلفة تماما، إلى حد اعتبار العروبة و الإسلام هما المسؤولان عن مختلف السلبات ومظاهر التخلف التي سادت في بعض المجتمعات المغاربية، وتحديدًا في المجتمع الجزائري. من مثل ضياع الحقوق، وغياب الحرية والمساواة بين المواطنين، وعدم إفساء الثقافة الديمقراطية، وباقى مظاهر العدالة الاجتماعية... وغيرها من القيم التي لا تتوفر - بحسب هؤلاء - إلا في سياقات التحديث والعلمانية7. كما برزت تيارات أيديولوجية واتجاهات سياسية اشتغلت على مسألة الهوية: إما من منظور الإنكار لبعض المقومات على حساب الأخرى، أو المغالاة في تضخيم دور عنصر ما؛ كالإسلام مثلا على حساب اللغة العربية وثقافتها أو العكس، وأحيانا الانتصار لتضخيم عنصر التراث الشعبي واللهجات المحلية، والثقافة الفلكلورية... الخ، واعتبارها مقوم الهوية والنهوض وأسه الأول والأخير ! 8

الحقيقة أن تباين المواقف واختلافها بشأن هذه المسألة ليس عيبا في حد ذاته؛ ذلك أن تنوع الآراء والاجتهادات إنما يمثل - في نظرنا - ظاهرة صحية تساعد على الإثراء المستمر لمكونات الهوية، كما يمكنها من ضح دم التجديد في عروقتها؛ لتقوى على النهوض والتفاعل الإيجابي مع التحديات. و أن إشاعة ثقافة النقد البناء يسهم حتما في إنضاج الرؤية وتكاملها باتجاه دعم مرتكزاتها، وسهولة التأقلم والتعايش مع الأوضاع الجديدة بمزيد من المرونة والفاعلية. هذا الذي يمكن في النهاية من تجاوز منطق الانكفاء على الذات إلى تبني روح الانفتاح على الآخر؛ في ظل واقع متغير تتدفق عليه المعارف والمفاهيم بسرعة لا متناهية.

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

غير أنه إلى جانب كل ما سبق ذكره؛ مطلوب من الجميع عدم تجاوز الموروث التاريخي أو القفز فوق حقائقه الموضوعية، ناهيك عن عدم الاستهانة بالمقدسات والثوابت... الخ؛ خاصة تلك التي أكدت تجارب التاريخ وحكمت بصحتها وجدواها، وأجمع عليها خاصة وعامة الناس بخصوص موضوع الهوية، الصناعة لمصائر شعوب المنطقة المغربية والعربية سواء في حالات السراء والضراء.

الخلاصة أن النظرة التقديسية للهوية تتساوى في رأينا تماما مع النظرة التحقيرية لها، كما أن منطق الاختزال لكذا عنصر لصالح آخر، أو التوظيف الإيديولوجي لمقوم معين لأجل خدمة سياسات ظرفية محدودة؛ لا تعدو في حقيقة الأمر أن تتداعى وتسقط أمام منطق التاريخ والواقع معا، فضلا عن زخم الرفض الجماهيري. وقد تتحول بموجب الترويج لمواقف معينة إلى لون من العنصرية والعداية المقيتة؟! كل ذلك يفرض علينا واجب التصدي للإشكالية بالكيفية التي تمكننا حقيقة من إعادة النظر وصناعة موقف متوازن من المسألة، يضمن للهوية المغربية عضويتها وتكامل عناصرها. فنقر بالثابت فيها ثم ندعمه عبر التعاطي معه من حيث طبيعته ودوره ووظيفته، كما نتحاور مع المتغير من مقوماتها بما يتناسب ويتلاءم مع حركية التغيير، وواقع التبدل والتجدد في الفكر، الثقافة، السلوك، وأنماط الحياة الأخرى. بذلك فقط نتمكن من مقارنة إشكالية الهوية بروح الأصالة، ومنطق التفتح المستنير، واعتماد الأسلوب البرغماتي الذكي؛ فنتمكن من اللحاق بركب العالمية والتجاوب مع متطلباتها، دون التخلي عن بصمة وجودنا التاريخي والحضاري...

3 - الهوية المغربية... بين النفسي والإثبات:

ابتداء يمكن التأكيد على أن مفهوم الهوية يشتمل على مجموع الروابط الموضوعية، الروحية، والشعورية التي تميز جماعة ما عن غيرها، وتجعلها تستقل بمنظومتها القيمية، ولسانها الناطق، وقوميتها المشكلة. وبالتالي فهي بهذا المعنى محققة في النفس والتاريخ؛ في الوقت الذي تضي فيه التطورات الاجتماعية والتاريخية - بتفاعلاتها الإيجابية والسلبية عبر الزمن على هذه الهوية - بعدا ثقافيا يختلط فيه المحلي مع العالمي، الثابت مع المتغير... مشكلا ملامح الهوية الثقافية في مرحلة ما. وقد شكل النضال الوطني القومي إبان حقبة الاستعمار الأوروبي بالمنطقة المغربية والعربية عامة، عنصر تغذية قوي، وزخم حيوي عزز من صمود الهوية المغربية في وجه سياسات التدويب والنفي لها. أما بعد استقلال المنطقة

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

وقيام الدول الوطنية فقد انضاف لها عنصرا جديدا ليعزز حزمة عناصر الهوية المغاربية؛ إنه الانتماء الوطني الذي احتل المقام الأول في ترتيب هذه العناصر، مشكلا ما يمكن تسميته " **بالهوية القطرية** " ؛ كبديل للهوية القومية والحضارية التاريخية الجامعة ! هكذا فبعد أن كنا جميعا نستظل بشجرة الهوية المغاربية - العربية الوارفة، انحصرت تدريجيا لتحل محلها الهويات الوطنية، ثم تختزل بعدها في هويات قطرية مستغرقة في المحلية و نرجسية الذات المضخمة ! وأصبحنا نسمع عن أصوات تعلي: الهوية الجزائرية، التونسية، المغربية، والليبية... على حساب الهويات الجامعة مغاربية كانت أم عربية، و إسلامية ؟

وقد بدأت تظهر وتتمو التوترات الاجتماعية ومظاهر التطرف في المجتمع المغاربي، أفضت إلى نزاعات عدائية بين أصحابها أنتجت نفيا متبادلا بين أنصار الهوية القومية وأنصار الهوية الوطنية، حتى أصبحت العلاقة بين الدولة الوطنية الحديثة الوليدة، والدولة القومية التاريخية؛ علاقة خصومة و تناقص. أفقدت الكيانين معا فعاليتهما الاجتماعية بالداخل، كما عززت من أسباب الانغلاق والانكماش للمنطقة سياسيا ودوليا. وانتهى كل ذلك إلى شيوع ظاهرة الانقسام الفكري والإيديولوجي بين النخب المغاربية حول موضوع الهوية !؟ وبدت الساحة متحركة من وحي تيارات ثلاث: **التيار القومي** المنتصر للغة العربية وثقافتها كمقوم للهوية وعنصر جامع للأمة، واعتبارها بمثابة المرتكز الأول في بناء الدولة. و**تيار إسلامي** تمذهب وتشيع للدين باعتباره عامل وحدة عقدية وشعورية، وعنوان حضارة ، ورابطة للإخوة الإسلامية الجامعة؛ مع اعتباره اللغة العربية وعاء له. **9. وفريق ثالث**؛ إنهم القطريون العلمانيون؛ سواء ظهوروا في ثوب اليمين الفرانكفوني أو اليسار الشيوعي، عززوا من موقع الجغرافيا، العرق، الثقافة المحلية، واللسان القومي ولهجاته المحلية... الخ؛ معتبرينها عوامل كافية لبناء الهوية الوطنية المستقلة؛ بعيدا عن الفكر الديني الماضي و طوبوياته، و شعارات العروبة المستهلكة.

هكذا بدت الهوية المغاربية في حالة من النفي والمصادرة من الجميع؛ باسم الدين تارة، وباسم اللغة العربية أخرى، وتحت مسمى الوطن و العرق الثالثة !!.. والحقيقة لو أمعنا النظر في طروحات هؤلاء لوجدناها مجتمعة تمثل في مجملها أركان الهوية المغاربية المتنازع بشأنها، المدعى حمايتها من الأطراف المذكورة

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

نفسها. فالخصوصية العرقية الثقافية المغربية لا تتناقض مع العنوان الكبير للهوية ممثلاً في العروبة و الإسلام. فكما يقول الدكتور سعد الدين إبراهيم، فإن حقائق الواقع تثبت: " أن الموحدات الكبرى قد دفعت بالخصوصيات الإقليمية و القطرية و المحلية إلى خلفية المسرح الحضاري للمنطقة، و لكنها لم تلغها أو تقض عليها... "10

إجمالاً فإننا نعصد و ننتصر لصالح الموقف القائل بتكامل الخصوصية المغربية مع الهوية العربية الإسلامية، دون الإنكار للخصوصيات المحلية القطرية: كالجزايرية، المغربية، و الليبية... وغيرها. بل إنه من الضروري اعتبار هذه الأخيرة بمكانة المغذي برصيدا الهام من التراث الثقافي و اللغوي الخصب؛ الذي يجب الحفاظ عليه و تطويره. بنفس القدر الذي يضمن عطاء المتجدد، و يعزز من تماسك لحمة الهوية المشتركة: المغربية - العربية ذات الملمحين البارزين و هما العروبة و الإسلام؛ كعاملين يعبر كل واحد عن الآخر: روحاً، فكراً، و موقفاً ثقافياً...

أما الهوية القطرية فهي تعكس - في نظرنا - واقعا اجتماعيا و سياسيا قائما لا يمكن لأحد إنكاره أو تجاوزه، بل من الممكن و الضروري الاستفادة منه لتعزيز أركان الهوية؛ لنجعل منه عامل إخصاب و حيوية، يتواصل بإيجابية و فعالية مع المكونات الثانية للهوية المغربية. بهذا فقط نحقق التطلع الذي تعلق به الكاتب التونسي المنصف وناس، حيثما أكد على: " أن الهوية في المغرب العربي هي هوية وطنية، لكنها تتميز بتكامل أبعادها الثلاثة: الوطنية و الإسلام و العروبة. "11

4 - الهوية المغربية... بين المؤيدين و المعارضين:

في ظل تنامي التيارات الفكرية و الأيديولوجية السياسية في مجتمعنا المعاصرة، و نزوع منظوماتها القيمية إلى اكتسابها صفة العالمية، و إظهارها للبعد الإنساني في خطابها كقيمة مشتركة جامعة؛ تهدف من ورائها إلى توحيد الإنسان كجوهر، و ككائن ثقافي واع... يميزه منطق العقل و حكمته، تتحرك ضمن مساحة وجدانية تستشعر مجموعة من المشتركات الإنسانية كقيم: الأخوة، الحرية، و العدالة، و تحقيق السعادة، الأمن و السلام... الخ. في ظل كل ذلك تبرز إشكاليات التوافق أو التعارض بين هذه المدارس الفكرية و الحضارية، و مؤسساتها الأيديولوجية المتحركة من داخل: المدرسة، المؤسسة الدينية، و فعاليات المجتمع

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

المدني، إلى جانب الإعلام، وأجهزة الدولة الرسمية، وانتهاء بمصادر إنتاج المعرفة و تكنولوجياياتها. يضاف إليها ثورة الاتصال، غزو الفضاء، وعالم الانترنت...الخ؛ هذه الفضاءات جميعها ساهمت في تقريب البعيد، واختزال الزمن و حياة الإنسان، إلى حد أصبح العالم يدعى بالقريبة الكونية الواحدة المفتوحة؛ التي يمكن لسكانها أن يتواصلوا ويتعرفوا إلى أدق التفاصيل التي تحدث في زوايا الكرة الأرضية، بل و أجزاء كبيرة من الفضاء الخارجي المحيط بها في كل لحظة.

هنا تبرز إشكالية الخصوصية في جوانبها: العقدية، الثقافية، الوطنية، والمحلية...الخ؛ وضرورة تحديد موقفها من زخم التحول المتسارع المرئي و غير المرئي وتفاعلاته اللامحدودة. كما يطرح السؤال بالحاح: ما المطلوب منا كمغاربة وعرب؟... هل هو الانصهار والذوبان في موجة العالمية والعولمة، أم الانكفاء على الذات للحفاظ على كياناتنا الثقافية والسياسية الخاصة؛ كونها تمثل رصيда تاريخيا- اجتماعيا، لا يتجزأ عن الهوية الوطنية والقومية التي لا يجب التنازل عنها باي حال من الأحوال ؟

إن الواقع المغربي جزء لا يتجزأ من الواقع العربي الذي تجري فيهما هذه الأحداث، و تتحرك في بيئتهما هذه التغيرات. وسؤال الهوية المغربية... وتحدي العولمة يظل واحد من الأسئلة الإشكالية الملحة والمؤرقة، التي تنتظر منا الإجابة الصريحة وبحث الحلول الممكنة له ؟ فالواقع الاجتماعي والفكري لمنطقة المغرب العربي يذكرنا بحقيقة تاريخية مفادها: أن سكانها قد تعرضوا في هويتهم إلى مجابهة مفتوحة منذ أمد بعيد استهدفت أركانها الأساسية خاصة اللغة العربية والدين الإسلامي، قادتها دوائر الاستعمار الأوروبي أثناء الاحتلال الذي مس أقطارهم، وبعد الاستقلال مباشرة؛ بسبب سياسات الدمج، الفرنسة، والتمسيح التي طبقتها. ثم بفعل آثارها الاجتماعية و الثقافية التي أعقبت الحقبة الاستعمارية بالمنطقة؛ حيث برز صراع الهوية بحددة في شكل مواجهة مفتوحة بين التيار القومي العربي الإسلامي المدافع عن هوية الأمة التاريخية و الحضارية، المتمسك بها كعنصر مقاومة بالأمس، وركنا لهوية المغرب العربي المستقل... والطرف الأخر وهو التيار الفرانكفوني الذي تمثله العناصر الأوروبية الدينية المتعصبة، واللغوية والثقافية المستعالية. تتبعهم نخبة متغربة محلية مسلوبة الإرادة ، التفكير، والوعي؛ اتخذت

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

لنفسها مرجعية بديلة مستوردة من سادتها بالأمس، ودافعت ولا تزال عنها كمظهر للحدثاء، وعنوان للنهوض لانجاز التطور الاجتماعي – الثقافي المنشود، في كنف الدولة العلمانية التي أقيمت على النمط الأوروبي – الغربي. 12

غير أننا نؤكد لكل بأن الشخصية المغربية ليست وليدة الظرفية، ولا هي صورة مستنسخة عن الأنساق الأوروبية المستوردة بعد الاستقلال، كما هي ليست نتاج نزوة قومية، أو مزاجات وطنية...الخ؛ إنما هي حصيلة تراكم تاريخي و حضاري، وتفاعل أنساق عديدة؛ تمازجت فيها عناصر: التاريخ والجغرافيا، مع مختلف المكونات الاجتماعية، والمزاج الشعبي، والثقافات المحلية.. وغيرها. كلها مجتمعة أنتجت ما يمكن أن نطلق عليه: منظومة القيم و المفاهيم، والمشتركات التي تفاعل فيها الإنسان المغربي مع محيطه الاجتماعي، متوصلا – من خلالها- مع وسطه الطبيعي وانتمائه القومي العربي الإسلامي، ومنفتحا في الوقت نفسه على العالمية بمسؤولية و التزام إنساني وأخلاقي كبيرين.

وعليه فإننا نؤكد بأن عولمة اليوم، وثقافة العولمة المطروحة، لا تخيف الإنسان المغربي، وليست بدعا جديدا على المنطقة؛ إنما هي جولة جديدة في معركة قديمة متجددة. لكن بأدوات وأسلحة عصرية شديدة التطور والفاعلية والتأثير؛ تتطلب منا فقط: وعيها والتعرف على طبيعتها، مع الاستفادة من زخمها، والتصدي لمخاطرها و أثارها السلبية... فكيف السبيل لانجاز كل ذلك يا ترى ؟

5- الهوية المغربية... و تحديات العولمة:

منذ زمن غير بعيد بدأت تشغل أذهان الكثير من النخب الوطنية و القومية العربية وكذا الإسلامية، ظاهرة اجتماعية، اقتصادية – ثقافية، متشابكة محليا وعالميا؛ اصطلح على تسميتها " بالعولمة ". وهي بنية جديدة تطبع النظام العالمي- كما يقول الدكتور برهان غليون13 - تتميز بالدينامكية الاجتماعية و التفاعل والتأثر المتبادل بين عوامل ذاتية نابعة عن الإرادة والسوعي، وأخرى موضوعية تحركها عوامل مادية وتقنية متسارعة الوقوع والتأثير. أبرزها ثورة الاتصال والمعلوماتية، وآفاقها التكنولوجية المرئية و غير المرئية. وتدور في ساحتنا المغربية والعربية عامة معركة أيديولوجية وثقافية كبرى حول قضية العولمة، تمحورت في ثلاث أقطاب فكرية:

- **قطب يرفض العولمة** جملة وتفصيلا بدعوى أنها تتحرك بوحى من خلفية الهيمنة والاستعمار، والمركزية الغربية المهددة للخصوصية المحلية... وما إلى ذلك من الهواجس والتبريرات المقدمة. ويبدو لنا في هذا الموقف ضعفا نخاله ناجم عن تحركه ضد تيار التاريخ ومساره، ناهيك عن حركة التغيير وقوانينها الاجتماعية التي لا تجامل أحدا.

- **قطب يعلن قبوله العولمة**، ويكشف عن استعداده للتعاطي مع كل العناوين التي تطرحها دون تحفظ أو تفحص جاد ومسؤول لبعض مقولاتها التي لا تتطابق في كثير أو قليل مع المعطيات الموضوعية للواقع، والخصوصيات الذاتية لشعبنا. فضلا على المصالح العليا لمجتمعاتنا ودولها... وفي ذلك - في رأينا - تجاهل غير مبرر لبعض سلبيات ومخاطر ظاهرة العولمة؛ كمنتوج تستنبت بعض قيمه وأفكاره خارج المنظومات القيمية - الاجتماعية لبيئات أخرى، كما هو الحال مع بيئتنا المغربية والعربية.

- **فريق ثالث** يرنو إلى طرح **بديل توفيقى**، يجتهد في قراءة موضوع العولمة من منظور نقدي مستنير هدفه فهم الظاهرة، مكوناتها، وقوانينها... الخ؛ باعتبارها تعكس الصيرورة التاريخية - الاجتماعية، ذات الأبعاد والتفاعلات المختلفة. حيث تقتضي العملية إضفاء مزيدا من المرونة الفكرية في تلقي زخمها، وفرز ما يتناسب منها مع الهوية الخاصة، وتحديث للعناصر الذاتية بما لا يتناقض أو يتصادم مع الوافد الذي يجسد الموضوعية من نتاج العولمة أو الكونية كما يلقبها البعض. 14

في غمار هذا الجدل العاصف، والنقاش المحتدم بين المؤيدين والمعارضين للعولمة، يطرح السؤال التالي: هل تتعارض العولمة مع مسألة الهوية أم لا؟ وهل أعد المجتمع المغربي والعربي عامة موقفه من قضية العولمة ونظرتها حيال موضوع الهوية؟ ماذا حضرنا في هذا السياق من بدائل للتعاطي مع اشكالياتهما وتحدياتها المعقدة؛ خاصة ما تعلق منها بالخصوصية المحلية وعلاقتها بالعالمية؟ الحقيقة أن العولمة بوصفها تعبير عن حالة من التشكل للنظام العالمي في أبنيته الفكرية والإيديولوجية، الاجتماعية والثقافية، الاقتصادية والإعلامية، المعرفية والتكنولوجية... الخ. هي في المحصلة: صياغة جديدة لأفكار، وقيم، وآليات وسلوكيات... للتعامل مع واقع متغير ومتجدد باستمرار. وهو وضع طبيعي في مجتمع بشري خاضع لصيرورة التطور التاريخي، الطامح دوما نحو تعزيز

المشتركات الإنسانية، الرامي إلى تأمين حال أفضل لمجتمع إنساني متعايش ومزدهر. ومن ثم فإن الحاجة لمواكبة حركية العولمة أمر في غاية الأهمية؛ لكن على خلفية كونها تقودنا إلى توحيد العنصر البشري وتميعة حياته، وتحقق مبدأي الاستمرارية والتواصل لبعدي المكان والزمان اللذان نحيا في كنفها.

معلوم لدى الجميع أن الثورة المعلوماتية والاتصال هما من أبرز عناوين العولمة وميزاتها البارزة؛ بما فرضته من ترتيبات جديدة ومؤسسات ذات صبغة عالمية، وتنافس شرس بين القوى المتنفذة لغرض التمتع واحتلال مصادر القرار والتوجيه العالمي. وهو أمر يستلزم منا كمغاربة وعرب تحديداً، إعادة النظر في طرائق ومناهج تفكيرنا، وأساليب العمل والانجاز، فضلاً عن منهجيات تعاملنا مع الغير... حتى نستطيع أن نضمن التكافؤ المطلوب مع لغة وخطاب العولمة؛ كخطوة أولى لفهمها، ثم التعاطي بفعالية مع موضوعاتها الشائكة. ذلك أنه من غير المنطقي حماية أنفسنا وميراثنا ومكاسبنا المادية الوطنية والقومية، ونحن نتحرك بعيداً عن السياق العالمي، غير منخرطين بإيجابية في واقع الصيرورة العلمية والتقنية المتسارعة. حتى نتمكن من التفاعل معها بروح المبادرة والإبداع والفعالية؛ تضمن لنا الحد الأدنى المطلوب من الأهلية والجدارة لدخول المنافسة التي تفرضها سياقات العولمة، وضرورة تكوين قوة استقطاب موازية تتكافأ مع منظومة القوى الأخرى عالمياً.

إن مثل هذه القوة المطلوب إعدادها هي وحدها المؤهلة والكفيلة بالحفاظ على الخصوصيات الذاتية، وضمان المناخ المناسب لتطورها، وتحقيق أمنها الاجتماعي فضلاً عن تطورهما العام. لتحقيق بها المناعة الفكرية والحضارية للأمم، واستقلال خياراتها السياسية في حركاتها المحلية والدولية. أما احتلال مواقع: التابع، الملحق، أو المتحرك خارج السياق... وغيرها؛ فهي مواقع لا تخول لنا كمغاربة وعرب حتى حق طرح التساؤل حول العولمة والموقف منها!... فضلاً عن إشهار موقف الرفض أو القبول لها؛ لأنه - في تقديرنا - في كلتا الحالتين سيكون موقفنا هزيباً وهدمياً؛ على اعتبار أننا بالحالة الموصوفة تلك ينطبق علينا المثل الشائع: "كالأطرش في الزفة!" فغيابنا عما يجري على المسرح العالمي سيحولنا بدون شك إلى ما يشبه الكائنات الهزيلة، التي تحيا خارج دورة التاريخ والفعالية؛ تفتقد عنصري الإنتاجية والمرودية، وإيجابية الحضور في شتى ميادين الحياة. وقتها

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

سيستغلنا الآخر قهرا، إذلالا، وإقصاء...! فماذا يبقى بعدها عندنا من قيمة للإنسان، الهوية، والحاضر، والمستقبل؟!

إن التعاطي مع العولمة - كما يؤكد د. برهان غليون- هو ليس بالضرورة استسلاما وخضوعا وكأنها قدرا منزلا، كما وأنه من قبيل التعامل مع الحتميات الموضوعية التي لا فكاك عنها، أو هي خيار واحد ليس لنا سوى قبوله!.. بمثل ما أن موقفنا منها ليس حكما بالرفض وإدارة الظهر، أو الإغلاء من الحصون والأسوار وسد المنافذ التي تمنع وصول رياحها وتأثيراتها، وتوفر أجواء مناخ مغلق يفتقر إلى حيوية وخصوبة الهواء الذي يهب علينا من العالم الآخر... إنما هو طريق ثالث نختاره ونصنعه بأيدينا؟ انه: "الأخذ بتقنيات العولمة... لضمان النجاح الاقتصادية والثقافية، لكن الاستفادة الفعلية من هذه التقنيات غير ممكن من دون أن تقف وراءها إستراتيجية ذاتية تحد من استخداماتها من قبل القوى الكبرى لأهداف هيمنية".¹⁵

أما عن موضوع الخصوصية الثقافية، وإشكالية التعامل مع هويتنا المغاربية في ظل واقع العولمة الجارف؛ فإننا نقر بالفعل بأن الثورة الحاصلة على مستوى الإعلام والاتصال، وعلى نطاق القيم والمفاهيم والسلوكيات... الخ، التي تطرحها وتجعل الكل أمام خطر زحفه عبر شبكات الاتصال العالمية المتطورة: كالانترنت، الخلوي، الفضائيات المشفرة وغير المشفرة؛ التي تضخ برامجها الموجهة عبر الأقمار الصناعية... وما إلى ذلك من الوسائل التي لم يعد أحد منا بمنأى عنها أو قادر على منع وصولها إليه في أية نقطة من كوكبنا الأرضي. لكن الخطر الحقيقي ليس في هذا الذي ذكرنا في حد ذاته، إنما هو في مدى استعدادنا وقدرتنا على التعاطي مع تلك المضامين التي تحملها، وذلك الزخم الذي تصنعه..؟ فالخطر إذا مسكون فينا نحن المغاربة والعرب من خلال توفرنا على المناعة الذاتية أم لا؟ والى إي حد نحن متمسكون بهويتنا، محققين الإجماع حول عناصرها، وهل نتوفر على الفاعلية اللازمة التي تمكننا من تطويرها بما يتناسب وخصوصياتنا التاريخية والاجتماعية دون تردد أو وجل...؟ ذلكم هو التحدي الحقيقي الذي نواجهه وتواجهه هويتنا المغاربية كذلك؛ لضمامنا بوصفها عنوان الوجود ومصدر الإلهام والتوجيه في حياتنا المستقبلية.

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

فماذا أعدنا من عدة في سبيل توفير تلك الشروط الذاتية والموضوعية، التي توهنا لعمليات التطوير والتفاعل الخلاق والمبدع مع قضايا الهوية والتحديات التي تطرحها العولمة؟ هل نملك من الاستعداد والإرادة الكافية وكذا الشجاعة المطلوبة لتقبل جرعة التحديث، في ظل ثقافة الالتزام والانفتاح المرن على العالمية؟ مما يمكننا من صناعة توأمة تعزز أواصر الاتصال والقربى بين الأصالة والحداثة بوعي مسؤول، والتزام أصيل؟

6- مقترحات وآفاق للتعاطي مع إشكاليات الهوية... والعولمة !

في تقديرنا، ومن خلال تتبعنا لواقع وصيرورة الواقع الثقافي ببلدان المغرب العربي، ومدى التأثير الذي يحدثه في الموقف والسلوك الفردي والجماعي، الرسمي والشعبي... فإن موضوع الهوية لا يزال يراوح مكانه، ولم يحظ بعد بالعناية الكافية إن على مستوى الفهم أو التطبيق؛ كمحدد ومرجع رئيس في أي مسعى جدي باتجاه التطوير الاجتماعي، والحسم في خيارات الهوية المغربية ومشروع المجتمع الذي يجب اعتماده؟!.. بل إنه من المؤسف حقا أن نجد عدم توفر مناخ النقاش الحر والبناء، المفضي إلى التوافق والإجماع حول أركان الهوية المغربية، سواء بين النخب والفعاليات السياسية والمدنية في أقطارنا المغربية، أو بينها وبين شعوبها عبر الآليات والفاعلات الديمقراطية المتعارف عليها في مثل هذه المقامات. ذلك أن المؤسسة الرسمية في هذه البلدان، ومثيلاتها في المعارضة - بعد قيام الاستقلالات الوطنية - لم تعمل على تمكين عنصر الهوية من تبوء مكانته وموقعه في تأطير الذات الاجتماعية، والتأسيس لمنظومة القيم والسلوك في الحياة العامة. بل غالبا ما تحركت لتعمل باتجاه " التوظيف السياسي والإيديولوجي " لعناصر الهوية؛ بهدف إضفاء الشرعية على خياراتها وتوجهاتها ومواقفها وصراعاتها... المحلية، الإقليمية والعالمية !

هذا في الوقت نفسه فقد نظرت النخب المتغربة بدورها إلى المسألة نظرة دونية؛ يطبعها بوصفها عاملا من عوامل التخلف المعيق عن اللحاق بركب الحداثة والعالمية... خصوصا ما تعلق بركني الإسلام والعروبة كمقومين أساسيين في الهوية المغربية والعربية الإسلامية عامة. متذرة تارة بدعوى استفاد المجتمع الإسلامي التاريخي التقليدي لوظيفته الحضارية، وأخرى بانتشار وذيوع سلوكيات التطرف والعنف داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة. لكن الحقيقة والواقع

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

يؤكدان - كما يقول د. محمد عابد الجابري - أن: "التطرف الذي تعاني منه بعض الدول العربية والإسلامية تحت شعار الإسلام، فالمسئول عنه ليس الإسلام، فهو مجرد شعار للتعبئة، إن المسئول هي السياسة الامبريالية الاستغلالية التي يتبعها الغرب."16

فالإسلام في حقيقته هو دفاع عن الذات واستحضار للهوية، وخطره يتمركز بالأساس حول مواجهة المخططات التوسعية في أبعادها الاقتصادية الثقافية... وغيرها. أما ثقافة الحوار فهي متأصلة حكما في منظومته الحضارية؛ يتداولها حتى مع خصومه العقائدين، فضلا عن مناوئيه في ميادين: الفكر والثقافة وأفاق التعامل الحياتية الأخرى... وقد تضافرت عوامل وجهود عدة: منها التاريخية، الاجتماعية، الذاتية والموضوعية، وأخرى تتعلق بواقع التحول والتبدل العالمي..؛ مهياً مناخ قيام صراعات فكرية وإيديولوجية، وحدثت مواجهات ذات طابع ثقافي وسياسي غطت مساحة كبيرة من المعاملات على المستويين: المحلي القطري والقومي، وأفق المستوى الحضاري العالمي. فكان حظ "الهوية" من هذا الصراع وافرًا لي طرح سؤالها بإلحاح على نطاقات ومستويات عدة: شعبية وعلى صعيد النخب الفكرية والسياسية، وفي داخل أجهزة الدولة الوطنية القطرية ومؤسساتها؟ تجلّى ذلك خاصة مع نهاية مرحلة الاستعمار التقليدي، ومباشرة مع عصر الاستقلالات وبداية خوض معركة التنمية الاجتماعية والاقتصادية. الأمر الذي جعل سؤال الهوية والوجود بمنطقتنا المغاربية يشكل أحد عناصر الاستقطاب والتواصل. وقد جاءت التحولات الدولية الأخيرة، وانهيار الإيديولوجية الشيوعية... الخ، لينفرد النظام الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة بزعامة العالم؛ في ظل ما عرف بالأحادية القطبية... كل ذلك فسح المجال واسعا أمام القوى الرأسمالية الغربية لتعبر عن طموحاتها المشروعة وغير المشروعة الهادفة إلى "رأسمالة العالم" اقتصاديا، ثم ليتمد عملها بعد ذلك إلى المسافة الأبعد؛ حيث العمل المنسق على تصدير مشاريع الهيمنة الإيديولوجية، وعولمة الإنسانية جمعاء: وجودا، فكرا، وموقفا وسلوكا! ؟

هذا الأمر أحدث ارتباكا وخللا في موازين القوة الدولية، كما فجر العديد من الأزمات في سياق المشروع الرأسمالي الأمريكي - الغربي المتعول، الذي يستهدف تدمير مختلف بني النظام العالمي لصالح الهيمنة الأمريكية على العالم. وقد عبر هذا عن عمق الصراع وتناقضاته الكبيرة تاريخيا وحضاريا؛ متجليا في

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
------------------------------------	--

الأبعاد النفسية المضمرة التي تحركها نزعات الحقد و العنصرية المقيتة، و سلوكيات التعالي و الوصايا... و غيرها. تلك التي نشم رائحتها الكريهة تقوح في كل مكان وتملأ زوايا العالم؛ من خلال شواهد ومواقف عدة، جرى بعضها على أسنة الساسة والمفكرين، و بعضها الآخر بدا في مواقف بعض المجموعات المناهضة لكل ما له صلة بالعرب المسلمين. ولعل في تصريحات بوش الأب و الابن حول فلسطين والعراق وطبيعة الصراع القائم في المنطقة، وكذا آراء و نظريات هنتون و فوكياما حول مصير الإنسان، و قيام الحضارات، و ادعاء الأخير نهاية التاريخ.. ثم مواقف بعض الشعوب الأوروبية في الدانمرك وهولندا واستراليا - المدعومة صهيونيا- من مقام الرسول الأكرم - صلح - ... وغيرها. لهي أقوى الشواهد و الأدلة المعبرة عن منطق التمركز و التوجيه للصراع العالمي، و إعطائه تعريفا محددًا؛ يتضمن بالخصوص إعلان الحرب على العالم العربي الإسلامي و ضد هويته الحضارية الشاملة.

استنتاجات وتوصيات الدراسة:

إن التصدي لهذا الإعلان؛ ليس هو مبادلة هؤلاء بالمثل، أو هو مجرد الإستقواء بالماضي والتاريخ و أمجادهما، و لا الانغلاق على الذات معتمدين منطق النعمة حيال عاصفة العولمة الهوجاء وأعاصيرها المدمرة... إنما يكون الموقف بتجميع قوى و فعاليات الأمة المتنوعة لتحضير خطة عمل شاملة؛ تتأسس على إعداد حزمة أهداف تكتيكية وأخرى إستراتيجية تتعلق أساسا بشروط نهضتنا و أفاقها الشاملة. تتضمن في خطوطها العامة إعادة استكشاف ذاتيتنا الواعية و بعثها، و نفخ روح الفعالية في عناصر و مقومات هويتنا المغاربية العربية؛ بما يكفل لها التجديد والإبداع في حياتنا الفردية والجماعة. و تتجلى معالم هذه الخطة في مقترحات توصلنا إليها كنتائج للبحث؛ وهي كالتالي:

- 1- تحرير الإنسان المغاربي و العربي من حالة السكون و السلبية التي سكنته دهرًا طويلًا، و ساهمت في صنع و عيه المزيف الذي تجلى في صورة: وجدانيات رومنطيقية ماضوية، و فكر مسكون بالقدرية ، معشش بالخرافة؛ أفضيا إلى

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
---------------------------------------	---

دوغماتية حياتية أفسدت عليه ذاته و شوهدت كل قيمة: دينية، أخلاقية، ومدنية جميلة .

2- إعادة التعريف للذات والوجود والهوية المغاربية، وتفعيل هذه الأخيرة بالشكل الذي يمكنها من إعادة الصياغة الدقيقة والموضوعية لعناصرها ومقوماتها؛ في إطار تعزيز الانتماء والولاء للأمة، وتركزها على أرضية فكرية ومنهجية عملية تستجيب لتطلعات الأجيال، كما تتجاوب مع منطق العصر وتحولاته، وتستلهم من مفاهيمه ومضامينه الإيجابية بما يكفل التكيف والمواكبة دون انغلاق أو تحلل.

3- تبني فكر العقلانية المستنير، والمنهجية الموضوعية الملتزمة، والمنطق العلمي العملي وأدواته؛ في التحليل و فهم الواقع وإدراك حقائقه، والتعاطي معه على خلفية الاعتراف بكامل مكوناته وتفاعلاته.

4- بحث منهجية رشيدة للتواصل والاستيعاب للآخر؛ عبر تفعيل الإيجابي من القواسم المشتركة كضمانة لتحقيق الحد الأدنى المطلوب من الإجماع الوطني، القومي، والإنساني؛ بعيدا عن منطق ولغة الإنكار أو الاستنكار، الإرهاب، والغزو... .

5- إعادة الاعتبار للقيم الثقافية والإنسانية، واعتبارها بمثابة المخزون الحقيقي لكل مسعى للتطور المنشود، وضرورة تموضع الهوية لدى الفرد والمجتمع؛ كفعل واع يؤسس لمرحلة قادمة من الإقلاع الحضاري للأمة. ذلك وحده هو المسلك الذي يضمن لها الرؤية المتميزة التي تحدد مكانتها من فكرة العولمة والعالمية، وتوفر لها التقاطعات الممكنة ضمن أرضية صلبة وملائمة، تتيح لكل أطراف الحياة المعاصرة حق التعبير عن أبعادها وتجلياتها، وآفاقها... في كنف التعاون والتعايش والسلام.

تلك هي رؤيتنا لمسألة الهوية المغاربية، ومنظور اقتراحاتنا المتواضعة لإعادة التعريف والتأهيل لموضوعاتها، استلهمناها على ضوء محددات وشروط تضمن لها مقارعة تيار العولمة بمنهجية وفعالية.

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
---------------------------------------	---

خاتمة:

في إطار تلك الملامح، وهذه المقاربة الفكرية السوسيو- تاريخية المذكورة آنفا، يتحدد- في تقديرنا - سؤال الهوية المغربية... وتحديات العولمة؟ ضمن أفق يتوخى توفير إطار التموثق للهوية العربية الإسلامية كفضاء أوسع جامع للأمة، وعنوان عريض لمشروع النهوض الحضاري. لتقترح الحلول، كما تقدم الإجابات المنطقية، التاريخية والواقعية، المؤطرة لفكرة الانتماء والمواطنة الفاعلة؛ حيث تكفل الحقوق والحريات، وتحترم الخصوصية، وتغشى الثقافة الديمقراطية، ومبادئ الإنسانية الشاملة... تلك التي نحسبها بمكانة الأركان والدعائم التي بواسطتها وعليها يمكن لنا إعادة تشكيل وصياغة الهوية المغربية، وبناء دولة الوطن - الأمة ! في الفضاء المغربي، كخطوة أولى في مرحلة تجميع الشتات العربي، وإعادة اللحمة إلى كيانه، وتحقيق الوحدة العربية الكبرى في ظل الدولة العربية الجامعة؛ صاحبة الهوية العربية الإسلامية المانعة، وأبعاد الأخوة الإنسانية.

ونعتقد أن الإرادات الخيرة متوفرة والرغبة ملحة، كما الإمكانية البشرية والمادية والحضارية قائمة، إلى جانب دوافع المصلحة والضرورة... فكلاهما يفرضان الإسراع في انجاز وتحقيق هذا المشروع القومي والإنساني النبيل. فالتاريخ لم يصل بعد إلى نهايته كما يدعي فوكوياما؛ إنه بمقدورنا استحضاره وصناعته من جديد، وبالتالي إعادة إدخال أمتنا العربية الإسلامية ضمن دورته الحضارية الجديدة بقوة وفعالية...

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
---------------------------------------	---

مراجع وهوامش البحث:

- 1- جمال جمال الدين، الإنسان الفعال ، ط 3 ، دار الفكر دمشق - سوريا 2006 ، صص 169 - 179
- نفسه
- 2- يوسف قاسمي، المثقفون الجزائريون والثورة التحريرية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة باتنة - الجزائر 2002 ، ص 38
- 3- سالم الحداد ، صراع الهوية ، الأطلسية للنشر ، تونس 2000 ، ص 15
- 4- محمد الصالح الهر ماسي، مقارنة في إشكالية الهوية ، ط 1 دار الفكر دمشق - سوريا 2001، ص 35
- 5- مجموعة من الباحثين، العقلانية، العلمانية، " الشرق أوسطية " ، إصدار جامعة دمشق - سوريا 1996، ص 95
- 6- احمد بن نعمان ، الهوية الوطنية ، دار الأمة ، الجزائر 1996 ، ص 23 و ما بعدها
- 7- Saïd Sadi , Culture et Démocratie , Ed - Parenthèses , Alger 1991
- 8- لمزيد من التفاصيل حول هذه الدعوات انظر: عبد الكريم غلاب ، أزمة المفاهيم و انحراف التفكير ، مركز دراسات الوحدة العربية 1998، صص 253 - 264
- 9 - سعد الدين إبراهيم و آخرون، المجتمع و الدولة في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1988، ص 170
- 10 - حسن الترابي ، السياسة و الحكم ... ط 2 ، دار الساقى بيروت - لبنان 2004 ، صص 484 - 487
- 11- المنصف وناس، الدولة و المسألة الثقافية في المغرب العربي ، ط 1 ، دار سراس للنشر، تونس 1996 ، ص 146
- 12- الهر ماسي ، مقارنة في إشكالية الهوية ، مرجع سابق، ص 33
- 13- برهان غليون و آخر، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة ، ط 2 ، دار الفكر بيروت لبنان 2002 ، ص 23
- 14- للمزيد من التفاصيل حول هذه المواقف انظر: السيد ياسين، العولمة و الطريق الثالث ، ط 2 ، مريت للنشر و المعلومات القاهرة 2001 ، صص 27 - 48
- 15- برهان غليون، مرجع سابق، ص 28
- 16- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان 1995، ص 196